ظهور الشيعة والتشيّع عند المستشرقين
عرض ونقد رأي المستشرق هاينس هالم[*]

أحمد بهشتي مهر[***] السيدة منى موسوي[**]

الملخّص

يهتمّ المستشرقون منذ القدم بالإسلام والمسلمين والمذاهب الإسلاميّة وجغرافيا البلاد الإسلاميّة، ويتناولون كلّ شيء بالتنقيب والبحث والدراسة المستفيضة...، وفي قضايا وموضوعات وتفاصيل قد لا يتناولها المسلمون أنفسهم. ومن الطبيعي ألّا يكون هذا الجهد العلمي خالصًا للحصول على المعرفة وحبًّا بها، وحتّى لو سلّمنا بذلك، فلماذا غياب العلميّة والموضوعيّة والمنهجيّة في البحوث والدراسات التي تتناول أمهات مصادر الإسلام؟!. ولماذا لا يستقصي الكثير منهم مصادر معلوماتهم بالشكل العلمي والوافي؟! وفي هذا السياق، وهذه المنهجية تندرج دراساتهم وبحوثهم في تاريخ الشيعة والتشيّع وعقائده وأفكاره وكل ما يتعلّق به وبأئمته وعلمائه، وهو موضوع هذا البحث؛ الذي يحاول أن يؤرّخ إجمالاً لبدايات دخول حقل الشيعة

[*]- المصدر: نُشرت هذه المقالة باللغة الفارسيّة تحت عنوان «بررسی و نقد دیدگاه هاینس هالم در خصوص پیدایش شیعه و تشیع» في مجلّة «شیعه شناسی» الفصليّة التي تصدر في جمهوريّة إيران الإسلاميّة، السنة الثامنة عشرة، العدد ٧٢، سنة الإصدار ٢٠٢١م، الصفحات ٨٣-١١٠.

[**]- أستاذ مساعد في جامعة قم.

[***]- أستاذ مساعد في جامعة قم.

والتشيّع إلى منظومة البحث عند المستشرقين؛ حيث يلحظ بعض المؤرّخين أنّ التعرّف التدريجي للمستشرقين على التشيّع كان مقارنًا لمرحلة الحروب الصليبية، وكانت البداية مع التعرف اليسير على بعض الشيعة الإسماعيلية، يليها المرحلة الثانية التي تعود إلى المرحلة الصفوية (القرن العاشر إلى الثاني عشر من الهجرة). ويبدو أن النشاط العلمي الأول والجاد في حقل الدراسات الشيعية في القرن التاسع عشر للميلاد، كان للمستشرق المجري إجناتس جولدتسيهر(١٨٥٠-١٩٢١م). وقد كثرت الدراسات والبحوث بعد ذلك حول الشيعة والتشيع. وصولاً إلى المعاصرين، ومنهم الباحث الألماني هاينس هالم (Heinz Halm)، الذي تلخّصت دراساته الإسلامية حول تاريخ الإسلام في الشرق الأوسط، ولا سيّما تاريخ الشيعة الأوائل، والإسماعيلية وسائر الفرق الشيعية الأخرى، والأهمية السياسية للشيعة في التحولات التاريخية لإيران، وبيان طيف واسع من عقائد الفرق الشيعية، والتعريف بالمباني العقائدية والتاريخية للشيعة.

كلمات مفتاحية: هاينس هالم، الشيعة، التشيّع، حزب ديني، ظهور الشيعة، ظاهرة دينية، صدر الإسلام، الإمام علي، الخليفة.

المقدّمة

لقد تم الاحتكاك الأول لعلماء الغرب بالإسلام عبر رواية أهل السنة وفكرهم ومباني مذاهبهم، ثم أخذوا يتعرّفون بالتدريج وبشكل سرّي وعلى نحو قليل ببعض الشيعة الإسماعيلية[١]، وذلك خلال [ما يُسمّى بـ][٢] الحروب الصليبية (من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر للميلاد)، لتبدأ المرحلة الثانية من تعرّف المستشرقين على التشيّع، خلال المرحلة الصفوية (القرن العاشر إلى الثاني عشر من الهجرة)[٣]. بيد أن المعلومات القليلة والمتفرّقة للغربيين حول الشيعة الاثني عشرية الإمامية كانت قد تعرّضت للتحريف؛ وفي بعض الأحوال كانوا ينسبون عقائد الغلاة إلى الشيعة، ويتمّ التعريف به في بعض الموارد على أنه مذهب رجعي. والسبب في ذلك يعود إلى أن تعرّفهم على التشيع كان يتمّ من طريق المصادر الضعيفة والمطعون فيها وغير الشيعية. يضاف إلى ذلك أنه لم يتمّ الاهتمام بالجهود المبذولة للحصول على النسخ الأولى أو تصحيح وترجمة النصوص الشيعيّة.

وقد دخلت الدراسات حول الشيعة والتشيّع لاحقًا حقول البحث والتحقيق التفصيلي في عالم الاستشراق. وقد صدر في هذا الشأن الكثير من الدراسات الأكاديمية في مختلف الحقول، ومن بينها: تصحيح النصوص والمخطوطات، والأبحاث والدراسات القرآنيّة، والتحقيقات اللغويّة والتاريخيّة والعقائديّة، علمًا بأن المستشرقين المختصين في الدراسات الإسلاميّة غالبًا ما يتّجهون في تحقيقاتهم إلى المنحى التاريخي، ويسعون إلى اكتشاف الأسباب التاريخيّة لظاهرة أو مسألة علميّة بين المسلمين.

ويبدو أنّ النشاط العلمي الأوّل والجاد في حقل الدراسات الشيعيّة في القرن التاسع عشر للميلاد، هو الذي قام به المستشرق المجري إجناتس جولدتسيهر

[١]- الطباطبائي، السيد محمد حسين، شيعه در اسلام، ص١٤. (مصدر فارسي).

[٢]- ما بين المعقوفتين إضافة توضيحية من عندنا، وينبغي الإشارة إلى أنّ (البابا أربانوس) فرض على الجيوش أن ترسم شارة الصليب على ثيابها وسروج خيولها، ومن هنا اكتسبت هذه الحملات اسم (الحروب الصليبية)، أما في العالم الإسلامي فلم تعرف آنذاك إلا بـ(حروب الفرنجة)، ويمكن معرفة ذلك لمن يطالع النصوص الإسلامية في تلك المرحلة، وهناك سيجد صيغًا أخرى، مثل: (الفرنج)، و(الإفرنج)، و(الإفرنجة). (المعرّب).

[٣]- شاردن، جان، سفرنامه، ص١١٤٠.

(١٨٥٠-١٩٢١م)[١]. وبعد ذلك أضحت الأعمال المتعدّدة لدونالدسون (١٨٨٤-١٩٧٦م) -ولا سيّما كتابه (مذهب التشيّع)- مصدرًا مهمًّا لدى الغربيين في حقل الدراسات الشيعية. كما أن بعض المشاهير من المستشرقين الآخرين الذين عملوا في حقل الدراسات الشيعية بشكل منهجي وأكاديمي، هم كل من: برنارد لويس (١٩١٦ ـ ٢٠١٨ م)، ومونتغمري واط (١٩٠٩-٢٠٠٦م)، وويلفرد مادلونغ (١٩٣٠-؟م)، وإيتان كولبرغ (١٩٤٣-؟م)، وموجان مومن (١٩٥٠-؟م)، وروبرت غليف.

التعريف بكتاب هاينس هالم

هاينس هالم[٢] باحث ألماني معاصر يعمل في حقل الدراسات الإسلاميّة والشيعيّة. وقد تلخّصت دراساته الإسلامية حول تاريخ الإسلام في الشرق الأوسط، ولا سيّما تاريخ الشيعة الأوائل، والإسماعيلية وسائر الفرق الشيعية الأخرى. وقد كتب الكثير من الأعمال والمؤلّفات في حقل الإسلام والتشيّع. وقد كان هاينس هالم من التلامذة المميزين عند المستشرقة أنا ماري[٣] شيميل[٤] في جامعة بون، وتمّ تنصيبه سنة ١٩٨٠م أستاذًا في حقل الدراسات الإسلامية في جامعة «توبين غن»[٥].

وإن موضوع كتاب (التشيّع)[٦] لمؤلفه هاينس هالم يدور حول الأهمية السياسية للشيعة في التحولات التاريخية لإيران. لقد كان غرض هالم من تأليف هذا الكتاب هو العمل على بيان طيف واسع من العقائد الموجودة بين الفرق الشيعية. ومن هنا فإنه يسعى جاهدًا من أجل تعريف المخاطب بالمباني العقائدية والتاريخية للشيعة.

---

[١]- خاكرند، شكر الله، تشيع نگاري و خاورشناسان، ص١٤٢. (مصدر فارسي).

[2]- Heinz Halm.

[3]- Annemarie Schimmel.

[٤]- آنا ماري شيمل (١٩٢٢-٢٠٠٣م): واحدة من أهم المستشرقين والمحققين الألمان وأكثرهم تأثيرًا. لها أعمال كثيرة حول الإسلام والتصوّف، ولها شهرة على المستوى الدولي، وقد شغلت منصب أستاذ في جامعة هارفارد وبقيت في هذا المنصب منذ عام ١٩٦٧ إلى عام ١٩٩٢م. توفيت عام ٢٠٠٣م، وأوصت أن يُنقش على شاهد قبرها قول الإمام عليه السلام: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا».

[5]- Tubingen.

[6]- The Shi'ites, Edinburg, 1995.

وعلاوة على ذلك يرصد دور علماء الدين الشيعة في التحوّلات السياسية لإيران. وقد تمّ تنظيم الكتاب ضمن خمسة فصول، وذلك على النحو الآتي: ١- منشأ التشيّع. ٢- الإمامية أو الشيعة الإثنى عشرية. ٣- الشيعة الغلاة. ٤- الإسماعيليّة أو الشيعة الذين يقتصرون على الاعتقاد بسبعة أئمة فقط. ٥- الشيعة الزيدية.

لقد تمّت الاستفادة في هذا الكتاب من ثلاثمئة مصدر تقريبًا، وتعود الإحالات إلى القرآن الكريم في هذا الكتاب إلى الترجمة الإنجليزية للقرآن والتي هي من عمل مارماديوك بيكتا (لندن، ١٩٥٧م). وقد عمل الدكتور سعيد أمير أرجمند[١] على إعادة قراءة هذا الكتاب.

توجد في كل عملية تفهيم وتفاهم بعض الألفاظ والمفردات التي تلعب دورًا محوريًا وأساسيًا في نقل المفاهيم والأفكار إلى المخاطبين؛ بحيث لا يكون التحاور من دونها أمرًا ممكنًا، ومن هنا يقول المناطقة: إن التصوّر متقدّم على التصديق[٢]. وعلى هذا الأساس، فإن كل إدراك أو تصديق إنما يتمّ الحصول عليه من طريق المفهوم. وإن التعرّف على أيّ فرقة ما -من حيث المنشأ التاريخي لأفكارها- لا يُعدّ استثناءً من هذه القاعدة. إن من بين الأسباب الأصلية في اختلاف الآراء بشأن العلوم وكذلك النظريات يعود إلى تجاهل التمايزات المفهومية والوقوع في شراك مغالطة الاشتراك اللفظي. وهكذا فإن ظاهرة الشيعة والتشيع بدورها لم تسلم من هذه الآفة، وكانت ماهيتهما المفهومية وتاريخ ظهورهما موردًا لتضارب الآراء، ولا سيّما من قبل المستشرقين.

كانت هناك منذ القدم نظريات مختلفة حول منشأ وظهور الشيعة والتشيّع[٣]؛

[١]- محقق إيراني/ أمريكي وأستاذ بارز في حقل علم الاجتماع من جامعة (ستوني بروك) في لانغ آيلند، ومدير مؤسسة (ستوني بروك) أيضًا. وتنشط هذه المؤسسة في حقل الدراسات العالمية.

Said Amir Arjomand, 1999, Review of "Shia Islam From Religion to Revolution" International journal of Middle East studies, pp. 276-278.

[٢]- المظفر، محمد رضا، المنطق، ص١١٢-١١٣؛ قراملكي، أحد، «چيستي و حقيقت امامت»، مجلة: امامت پژوهي، ص٣٥-٣٦.

[٣]- هناك من يقول إن ظهور التشيّع يعود إلى ما بعد السقيفة واختيار أبي بكر خليفة للمسلمين (الطبري، محمد بن

ولكن حيث إن أغلب هذه النظريات تستند إلى مصادر من الدرجة الثانية، من قبيل مصادر أهل السنة، وإن أكثر الآراء المذكورة في هذا الشأن قد تمّ تقديمها وتقريرها بشكل ضعيف وخاطئ وغير واقعي، فقد تمّ تصوير التشيّع -في نهاية المطاف- على أنه مذهب محرّف ومختلق عن ظهور الأفكار والجماعات. وقد تمّ نقد ومناقشة الكثير من هذه النظريات في العديد من الأبحاث والدراسات[١]. وفي نظرة متفائلة، يجب القول: إنه على الرغم من أنّ لهذه الدراسات طابعها البحثي والعلمي، ولكنها بسبب استنادها الرئيس إلى المصادر غير المعتبرة، تؤدي في الغالب إلى نتائج غير واقعية، وترد عليها لذلك انتقادات جادّة.

إن من بين المسائل الأهم في أفكار أيّ تيار مذهبي، عبارة عن التقرير والبيان الذي يقدّمه عن هويته وماهيته التاريخية. وكلما اتسع الشرخ الزمني بين ظهور التيارات الدينية ومنشأ ظهور ذلك الدين، فإن ذلك التيار سوف يواجه المزيد من التهم، من قبيل: الاختلاق والانحراف. ومن بين التيارات الإسلامية تمّ وضع الشيعة -للأسف الشديد- في موضع الاتهام بالانحراف. وإن الجذور الأصلية لهذه التهم تعود إلى هذه النظريات الخاطئة فيما يتعلق بمنشأ ظهور الشيعة وتبلور التشيّع. ومن هنا يتعيّن على الباحثين والمحققين من الشيعة أن يقدّموا توصيفًا وبيانًا دقيقًا بهويتهم التاريخية، والعمل بعد ذلك على انتقاد الآراء الخاطئة الموجودة في هذا الشأن.

ومن بين الكثير من الأشخاص الذين كتبوا في حقل ظهور التاريخ الفكري وكذلك جموع الشيعة، هو المستشرق والباحث الألماني في الشأن الشيعي هاينس هالم؛

جرير، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، ج٣، ص٢٠٥). وهناك من قال إن ظهور التشيع يعود إلى حرب صفين (ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست، ص٢٦٣). وهناك من قال إن ظهوره يعود إلى فترة حكم الإمام علي عليه السلام (ابن حزم، أحمد، الفصل، ج١، ص٧٨). وهناك من قال إنه يعود إلى ما بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام (معروف الحسني، هاشم، الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ، ص١١). وهناك من قال إنه مذهب من صنع عبد الله بن سبأ (العسكري، السيد مرتضى، عبد الله بن سبأ، ص٤٧). وهناك من قال إنه يعود إلى أصول إيرانية (الوائلي، الشيخ أحمد، هوية التشيّع، ص٧٢-٧٣).

[١]- ومن بينها، فتاحي زاده، فتحية وپروين حيدري، «بررسي منشأ پيدايش شيعه و تفاوت آن با مذاهب ديگر»، مجلة: شيعه شناسي، العدد: ٢٠، ص١٤٤-١٥٣؛ الطباطبائي، السيد محمد حسين، «كيفيت پيدايش شيعه و نشو و نماي آن"، مجلة: معارف اسلامي، العدد: ١، ص١٠-١٥؛ شاكر، أبو القاسم، "شبهات پيرامون تاريخ پيدايش تشيّع»، مجلة: پيام، العدد ١٠٤، ص١٠٧-١١٤. (مصادر فارسية).

حيث ذكر في كتابه (التشيّع) رؤية تستحق البحث والتأمّل من عدّة زوايا.

نحن نرى أن «الشيعة» و«التشيّع» مفهومان متمايزان، ولكل واحد منهما أنواع ومصاديق مختلفة، وبالتالي يكون لهما مناشئ ظهور متنوّعة. وفي هذه المقالة سوف نعمل في البداية على بيان رؤية هاينس هالم ضمن ثلاثة أقسام، وهي: «تعريف «الشيعة»»، ومنشأ ظهور الشيعة، والخلافة المباشرة للإمام علي عليه السلام. ثم بعد بيان التمايز المفهومي والمصداقي لـ«الشيعة» (في إطار الفرد والجماعة والمجتمع) ومنشأ ظهورها، سوف نعمل على تحليل أن كلامه ناظر إلى أي واحد من أنواع الشيعة. ومنشأ ظهور أيّ نوع من الشيعة كان هو المراد من كلامه؟ وهل ذكر دليلاً وبرهانًا على مدّعاه؟ ثم نعمل في نهاية المطاف على نقد رأيه وما إذا كان صحيحًا أو خاطئًا.

تعريف «الشيعة» من وجهة نظر هاينس هالم

بعد نقل هاينس هالم لرأي فلهاوزن[١] -القائل إن الشيعة «حزب ديني/ سياسي»- عمد بدوره إلى تعريف كلمة «الشيعة» على أنها تعني «حزب»[٢]، وبذلك فإنه ينظر إلى الشيعة نظرة سياسيّة، ويعتبر الشيعة جماعة كانت تدافع عن دولة الإمام علي عليه السلام في مواجهة حكم عثمان بن عفان[٣].

منشأ ظهور الشيعة من وجهة نظر هاينس هالم

يذهب هاينس هالم إلى الاعتقاد بأن مصطلح «شيعة علي» قد ظهر بعد مقتل عثمان ومسألة تعيين الخليفة بعده، حيث قال: «إن عنوان شيعة علي أخذ يطلق -في إطار النزاع الحاصل بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان حول من يخلفه- على الأشخاص الذين دعموا ترشيح صهر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وابن عمّه علي بن أبي طالب عليه السلام»[٤].

---

[1]- Wellhausen.

[٢]- هالم، هاينس، تشيّع، ص١٥.

[٣]- م.ن.

[٤]- م.ن.

وفي الأساس، فإن هاينس هالم يعتبر الشيعة ظاهرة سياسية، وهذه الرؤية لهالم تلوح من جميع مواضع كتابه، فهو من خلال بيان الفترة الزمنية لظهور الشيعة بوصفهم حزبًا عمل على تعريفهم بأنهم يقومون على خصوصية سياسية، ويوحي بأن هذه الجماعة ليس لها من همّ أو هاجس سوى الاستيلاء على الحكم والسلطة. ومن هنا فإنهم في الاعتراض على الوضع القائم، مالوا نحو الإمام علي عليه السلام، وإن ذات هذا الدافع هو الذي صار علة لظهور هذه الجماعة؛ إذ يقول: «لقد ظهر الشيعة على شكل حزب، في إطار سعيهم من أجل الوصول إلى السلطة السياسية»[١].

وهو لا يفتأ يذكر الصبغة السياسية للشيعة مرارًا وتكرارًا. وكأن هذا الدافع هو الوحيد بوصفه خصوصية لازمة وضرورية لهم. يذهب هالم إلى الاعتقاد بأن الشيعة كانوا يسعون في جميع حالاتهم من أجل الحفاظ على مكانتهم السياسية، وإن هذا الدافع السياسي معقود في وجدانهم بحيث لا يزال مستمرًّا فيهم إلى الآن. ومن ذلك قوله: «لقد ظهر الشيعة في سعيهم إلى الحصول على السلطة السياسية على شكل حزب سياسي، ولم يتخلّوا عن هذه الخصوصية السياسية لهم أبدًا. وحتى اليوم نجد الدين والسياسة عند الشيعة -كما كان عليه الأمر في السابق- في علاقة وثيقة. لم يكن الشيعة يومًا... حتى في مراحل ضعفهم، قد غفلوا عن قوتهم الكامنة من أجل الوصول إلى السلطة»[٢].

يذهب هاينس هالم إلى الاعتقاد بأن التشيّع لا يمكن أن يكون مجرّد ظاهرة دينيّة بحتة؛ إذ في هذه الحالة سوف يصعب تعريف التشيّع، وذلك لسببين، وهما:

١ـ إن ما هو موجود في التشيّع لا يتطابق مع أيّ من المقولات المسيحيّة أبدًا.

٢ـ إن التشيّع ليس له ماهية ثابتة، وقد تطوّر على مرّ الزمن، وطرأت عليه تغيّرات وانقسم إلى مذاهب وجماعات[٣].

[١]- هالم، هاينس، تشيّع، م.س.

[٢]- م.ن، ص١٥-١٦.

[٣]- م.ن، ص١٦-٢٣.

وقال في ذلك: إن الاختلاف بين الشيعة والسنة ليس بالحجم الذي يمكن معه عدّ التشيّع دينًا آخر أو حتى فرقة منشقّة؛ إذ إنه لا يحتوي على خصائص الفرقة. ومن هنا فإنه يميل إلى ترجيح التعبير عن المنشأ والسبب الأولي لانتشار التشيّع بـ«الانشعاب»؛ وهو الانشعاب الحاصل بسبب النزاع حول قيادة المجتمع والأمّة[١]. وعليه فإنه يقلل الاختلاف الكلامي والاعتقادي بين التشيّع والتسنن إلى مجرّد أمر فرعي، ولكن على حساب أن التشيّع قد انشعب وانفصل عن أصله في صدر الإسلام، وكان سبب هذا الانفصال والانشعاب هو الموقف السياسي المخالف في تعيين القائد والخليفة[٢]. وعلى هذا الأساس يمكن القول في نهاية المطاف: إن التشيّع مذهب يعمل على التعريف بإمام معيّن[٣].

ويبدو أنه يعتبر الإسلام مرادفًا ومعادلاً للتسنن الذي له الأصالة، وأن التشيّع بمثابة الفرع المنفصل عن أصله. وكان هذا بداية لانتشار وتبلور التشيّع. إلا أنه يحدد التاريخ الأصلي لتكوين التشيّع وانتشاره بما بعد مقتل عثمان[٤]، وأن معقل التشيّع عبارة عن مدينة الكوفة. وأن الإمام علي عليه السلام طوال كفاحه من أجل الحكم قد لجأ إلى هذه المدينة وحصل على دعمها[٥].

كما أنه يأخذ رأي الشيعة بنظر الاعتبار أيضًا، ويقول: إن الرأي الصحيح عندهم هو أن التشيّع كان موجودًا منذ البداية، وأنه لم يطرأ عليه التغيّر أبدًا، وإن ذات هذا الاختلاف بين الطائفتين يبيّن البداية التاريخية له بوصفه حزبًا وجماعة منفصلة، إلا أنه يعتقد أن هذا البيان لا يؤدّي حق الكلام بشأن تكوين الشيعة[٦].

يرى هاينس هالم أن زمن انعقاد الاختلاف وحدوث الانشعاب يختلف عن زمن

[١]- هالم، هاينس، تشيّع، ١٦-٢٣.

[٢]- م.ن، ص٢٢.

[٣]- م.ن، ص١٦-١٧.

[٤]- م.ن، ص١٥.

[٥]- م.ن، ص٣٠-٣١.

[٦]- م.ن، ص١٨-١٩.

ظهور التشيّع بوصفه حزبًا يدعم قائدًا معيّنًا. إن المنشأ الأولي والأصلي لظهور الشيعة يعود إلى صدر الإسلام، وإن الموقف المخالف حول تعيين القائد الديني/ السياسي قد اكتسب بالتدريج خصائص أخرى[١]. إلى أن ظهر مصطلح «الشيعة» وجماعة التشيّع بعد مقتل عثمان، وأخذ هذا المصطلح يُطلق على أنصار الإمام علي عليه السلام[٢].

رأي هالم حول خلافة الإمام علي عليه السلام المباشرة ومن يؤمن بذلك من الشيعة

لا شكّ في أن هذا المستشرق الألماني ملتفت إلى أن الشيعة يسندون عقيدتهم بشأن خلافة الإمام علي عليه السلام المباشرة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى حديث الغدير، ويرون أن كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في يوم الغدير تمثّل نصًّا جليًا على تعيين الإمام علي عليه السلام[٣]. من هنا وفي ضوء رؤية الشيعة فإن الأشخاص الذين كانوا حاضرين في يوم الغدير، ومن بينهم عمر بن الخطاب، باركوا للإمام علي عليه السلام وخاطبوه بلقب «أمير المؤمنين»[٤]. وقد ذكر صائبًا أن الشيعة يعتبرون الإمام علي عليه السلام هو وحده الخليفة الحقيقي للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولا يطلقون لقب «أمير المؤمنين» إلا عليه، ويرون أن خلافته القصيرة كانت وحدها هي الحكومة المشروعة التي عاشت الأمة الإسلامية تجربتها بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله[٥]؛ وذلك لأن النبي قد صّرح بخلافته وإمامته في عدّة مواطن، بيد أنه لم يصل إلى الخلافة إلا في وقت متأخر، وذلك بعد ربع قرن من موعدها الأصلي بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة[٦].

وقال أيضًا إن انتخاب الإمام علي عليه السلام من قبل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في غدير خم، يعد من الحقائق الثابتة والقطعية عند الشيعة، وإن جميع الذين خالفوا واعترضوا على

[١]- هالم، هاينس، تشيّع، م.س، ص١٦.

[٢]- م.ن، ص١٥.

[٣]- م.ن، ص٢٨.

[٤]- م.ن.

[٥]- م.ن، ص٣١.

[٦]- م.ن، ص٢٧-٢٨.

خلافة الإمام علي عليه السلام هم مورد بغض الشيعة[١]، إلا أنه لا يرتضي دلالة هذا الحديث، ويقول: «إن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يذكر أيّ حكم لهداية مستقبل الأمّة الإسلامية، ولم يخلف ولدًا ذكرًا ليكون خليفة له»[٢].

يذهب هاينس هالم إلى الاعتقاد بأن مراد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من هذا الكلام أيًا كان، إلا أنه لم يكن تعيين خليفة له[٣]. ومن ناحية أخرى فإن انتقال السلطة السياسية من الأب إلى الابن لم يكن قد تأسس على نحو الأصل المُلزم. ومن هنا فإن أهل المدينة قد اختاروا واحدًا من المهاجرين المكيين بوصفه خليفة لرسول الله عليهم، وهو (أبو بكر بن أبي قحافة)[٤].

إن خلافة الإمام علي عليه السلام -من وجهة نظر هاينس هالم- لم تكن بسبب النصّ عليه من قبل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولا بسبب الوراثة، وذلك أولاً لأنه كان واحدًا من أعضاء الشورى الستة لاختيار الخليفة الثالث، وإنه لم يتمّ تنصيبه خليفة على المسلمين بعد مقتل عثمان، وهو إنما كان في ذلك مجرد مرشّح لبعض المسلمين الذين طالبوا بالحكومة الإسلامية الأصيلة؛ ليحصلوا على سلطة أقوى في مواجهة أشراف مكة[٥].

وقبل مناقشة كلام هاينس هالم بشكل مباشر، من الضروري أن نذكر كلامًا حول التمايز المفهومي لكلمة «الشيعة» و«التشيّع»، وأنواع الشيعة، ومبدأ ظهور كل واحد من هذه المفاهيم:

التمايز المفهومي بين «الشيعة» و«التشيّع»

على الرغم من استعمال مفردتي «الشيعة» و«التشيّع» بمعنى واحد وعلى نحو مترادف في أغلب النصوص والمصادر الكلاميّة والتاريخيّة وكتب المذاهب

[١]- هالم، هاينس، تشيّع، م.س، ص٣٧.

[٢]- م.ن، ص٢٥.

[٣]- م.ن، ص٢٩.

[٤]- م.ن، ص٢٥.

[٥]- م.ن، ص٢٩.

والنِحَل وحتى المصادر الروائية، ولكن يبدو أنه يجب الفصل والتمييز بين هذين المصطلحين. إن المعاني المذكورة في الكتب اللغوية لـ«الشيعة» و«التشيّع» تثبت أن هاتين الكلمتين يمكن لكل واحدة منهما -من الناحية اللغوية في الحدّ الأدنى- أن تكون مختلفة عن الأخرى. إن البحث اللغوي يثبت أن كلمة «الشيعة» تطلق على الأشخاص والجماعة والقوم والأصحاب والأنصار الذين يتفقون على أمر واحد، أو يتبعون رأي شخص واحد، أو يكونون سببًا في تقوية الشخص أو نصرته[١]. وأن التشيّع يعني القول بما يدّعيه الشيعة[٢]، كما تعني النشر أو التفرّق[٣].

كما يختلف معنى هاتين الكلمتين عن بعضهما في المصطلح الخاص أيضًا. إن علماء الشيعة يطلقون لفظ «الشيعة» على الأشخاص والجماعات أو الأفراد. وإن بعض تعاريفهم في هذا الشأن على النحو الآتي:

ـ «الشيعة» جماعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذين آمنوا بإمامته بعد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله[٤].

ـ «الشيعة» تطلق على أتباع أمير المؤمنين عليه السلام الذين يؤمنون بولايته وإمامته اعتقادًا، ويقولون بخلافته بلا فصل بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله[٥].

ـ «الشيعي» هو الذي يقول بإمامة الإمام علي عليه السلام بلا فصل[٦].

ـ «الشيعي» هو الشخص الذي يؤمن بوجود نصّ من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على إمامة الإمام علي عليه السلام وخلافته[٧].

---

[١]- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج٢، ص١٩١؛ الراغب الإصفهاني، حسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ص٣٥٦، وص٤٧٠.

[٢]- الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، ص٣٥٧.

[٣]- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي، لسان العرب، ج٨، ص١٩١-١٩٢.

[٤]- الأشعري القمي، سعد بن عبد الله، المقالات والفرق، ص١٥.

[٥]- المفيد، محمد بن نعمان، أوائل المقالات، ص٣٥.

[٦]- العاملي (الشهيد الثاني)، زين الدين بن علي، الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، ج٣، ص١٨١.

[٧]- مغنية، محمد جواد، الشيعة في الميزان، ص٣٣.

وقد ورد تعريف «الشيعي» في بعض مصادر أهل السنة بأنه الشخص أو الأشخاص الذين يتبعون أمير المؤمنين عليًا عليه السلام، أو يعتقدون بإمامته بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله[١].

وأما المراد من «التشيّع» فهو المفهوم والاعتقاد الذي يختص بالتفكير. وعلى هذا الأساس يجب التمييز بين تلك العقيدة أو الرؤية الكلامية وبين الشخص الذي يؤمن بتلك العقيدة. وفي هذا الكتاب نذهب إلى الاعتقاد بأن ولاية الإمام علي عليه السلام وإمامته تعني «التشيّع»، وأن الشخص الذي يتبع هذه العقيدة هو «الشيعي».

في تعريف هاينس هالم لـ«الشيعي» يجب الالتفات إلى ثلاث نقاط:

الأولى: إن كلمة «الشيعي»، كما يذكر هو بنفسه، كلمة عربية[٢]. وكلمة «الشيعة» في اللغة العربية لا تستعمل بمعنى الحزب فقط، بل إن «التبعية واتفاق جماعة على أمر ما» -كما تقدّم في بيان المعنى اللغوي- قد أشرب في معناها أيضًا.

الثانية: لقد ذكر هاينس هالم تعريف «الشيعة»، ولكنه لم يتعرّض لبيان معنى «التشيّع».

الثالثة: إن كلمة «التشيع» التي قام هالم بتعريفها إنما هي ناظرة إلى مجرد واحد من معانيها وأنواعها، وهو «التشيّع السياسي». وسوف نعود إلى التوضيح في هذا الشأن في الفصل اللاحق أيضًا.

تعدّد استعمالات التشيّع

ولمفهوم «الشيعة» استعمالات مختلفة، وعلى غرار ذلك تكون له مصاديق متعددة أيضًا؛ ونتيجة لذلك تكون له مناشئ ظهور متنوّعة:

١ ـ «**الشيعي العقائدي**»: وهو يُطلق على الشخص الذي يعتقد بمفهوم الخلافة الشامل والمطلق وبلا فصل للإمام علي عليه السلام بوصفه خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله. وإن

[١]- ابن حزم، أحمد، الفصل، ج١، ص٣٧٠؛ الجرجاني، شريف علي، التعريفات، ص٥٧.

[٢]- هالم، هاينس، تشيّع، ص١٥.

الاتجاه الفكري لهذا الصنف من الشيعة يعود بجذوره إلى اعتقاد خاص (وهو الحق الإلهي للإمامعليه السلام في الإمامة). وفي هذه العقيدة تكون للإمام -بالإضافة إلى الحق في الحكم وإدارة المجتمع والسلطة- بسبب ارتباطه الخاص بالنبي الأكرمصلى الله عليه وآله، منزلة فكرية ومعنوية خاصة، ويجب لذلك اتباعه في جميع الأصول والفروع. ويُشير أتباع هذه الرؤية إلى هذا المقام الثابت للإمام بعبارات من قبيل: الوصاية والولاية والإمامة[١].

٢ ـ «**الشيعي السياسي**»: هو الذي يعترض على عثمان، ويرى أن الإمام علي هو الخليفة الشرعي. والكثير من هؤلاء الشيعة بهذا المعنى كانوا يقبلون بخلافة الخليفة الأول والثاني قبل عثمان، ومع ذلك كان العثمانيون المتطرّفون يطلقون على هؤلاء مصطلح الشيعة[٢].

ونحن نطلق على هؤلاء مصطلح «الشيعي السياسي»؛ إذ لم يكونوا يعتقدون بالخلافة المباشرة للإمام عليعليه السلام بلا فصل، ولم يميلوا إلى صفّ الإمام عليعليه السلام إلا في قضية خلافة عثمان؛ حيث امتعضوا من الأوضاع التي سادت فترة خلافته ولم يعودوا يطيقون صبراً على الانحراف الحاصل فيها عن مبادئ الإسلام الأصيل، وفي مقام المقارنة فيما يتعلق بالحكم رجّحوا كفّة الإمام عليعليه السلام.

وقد يكون هناك بين هذا الصنف من الشيعة من يفضّل الإمام عليعليه السلام حتى على الخليفتين الأول والثاني، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يقولون بأن الإمامة حق إلهي ثابت له. وتارة يطلق هذا المصطلح «شيعة علي» (في قبال «شيعة عثمان»). وهناك من أطلق على هذا النوع من التشيّع اسم «التشيّع العراقي» أيضًا[٣].

٣ ـ «**الشيعي المحبّ لأهل البيت**عليهم السلام»: وهو الشخص الذي يضمر في قلبه مجرّد حبّ ومودة لأهل البيتعليهم السلام، ويقتصر في علاقته بأهل البيتعليهم السلام على حدود هذه المحبة

[١]- جعفريان، رسول، تاريخ تشيّع در ايران، ج١، ص٣٠. (مصدر فارسي).

[٢]- م.ن، ص٢١.

[٣]- م.ن، ص٢٢.

فقط، دون أن يبرأ من أعدائهم ومخالفيهم. ومع ذلك فإن هؤلاء يُعدّون من وجهة نظر العثمانيين من الشيعة؛ ولكن بناء على فهم لرواية الإمام الحسن العسكري عليه السلام[١] يجب تسمية هؤلاء بـ«المحبّين» فقط. وقد أطلقنا على هذه الجماعة في مقام التسمية ولغرض التمييز بين أنواع الشيعة -في ضوء ما حدث طوال التاريخ- عنوان «الشيعة المحبّين».

وفي تبويب آخر، يمكن أن نذكر ثلاثة مصاديق للشيعي العقائدي:

١ ـ الشيعي بوصفه فردًا.

٢ ـ الشيعي بوصفه جمعًا وأفرادًا يمتازون من سائر الجماعات الأخرى.

٣ ـ الشيعي بوصف المجتمع الذي يشتمل على ميزة وغاية محدّدة ومنظمة، ويكون له في إطار تلك الغاية نشاط منسجم ومركّز.

تعدّد مناشئ الظهور

أ ـ **مبدأ ظهور مصطلح «الشيعة»**: إن أول استعمال لمصطلح «الشيعة» بمعنى أتباع الإمام علي عليه السلام -على ما ورد في الروايات الموجودة بين أيدينا- إنما كان على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، وذلك في روايات من قبيل: «هم أنت وشيعتك»[٢]، و«هذا وشيعته هم الفائزون»[٣]، و«أنت وشيعتك في الجنة»[٤]، و«إذا كان يوم القيامة ... أخذ وُلدك بحجزتك، وأخذ شيعة وُلدك بحجزتهم»[٥]، و«ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيين»[٦]. إن هذه الروايات تدلّ بوضوح على تاريخ ظهور واستعمال مصطلح

[١]- سُئل الإمام العسكري(عليه السلام): ما الفرق بين الشيعة والمحبّين؟ قال: «شيعتنا هم الذين يتبعون آثارنا ويطيعونا في جميع أوامرنا ونواهينا، ومن خالفنا في كثير ممّا فرضه الله فليس من شيعتنا». (الإمام الحسن العسكري، ص٣١٦).

[٢]- الآلوسي، محمود، روح المعاني، ج١٥، ص٤٣٢.

[٣]- الحسكاني، عبيد الله بن أحمد، شواهد التنزيل، ج٢، ص٤٦٧.

[٤]- ابن عساكر، أبو القاسم، تاريخ مدينة دمشق، ج٤٢، ص٣٣٤.

[٥]- الزمخشري، جار الله، ربيع الأبرار، ج٢، ص١٥٩.

[٦]- ابن الأثير، مبارك بن محمد، النهاية، ج٤، ص١٠٦.

«الشيعة» في عصر النبي الأكرمﷺ.

ب ـ **مبدأ ظهور التشيّع الاعتقادي**: ذكرنا أن هناك تفاوتًا بين «الشيعة» و«التشيّع». وكذلك فإن للشيعة أقسامًا وأصنافًا. ومن هنا فإننا نواجه مناشئ متنوّعة لظهور هذين المفهومين. إن النقطة الجديرة بالاهتمام هي أن بداية ظهور التفكير يمكن أن تكون مختلفة عن الذين يعتنقونه ويؤمنون به. فقد يتمّ بيان فكرة في مرحلة زمنية، ولا تجد لها أتباعًا إلا في مرحلة زمنية أخرى. وكذلك لا بدّ من الالتفات إلى أن هناك وراء ظهور كل فرقة، فكرة ورؤية. وعلى هذا الأساس نقول أوّلًا: إن كل صنف من أصناف التشيّع يقوم على نوع من الدعامات الفكرية. وثانيًا: قد يكون هناك اختلاف زمني بين منشأ ظهور تلك الفكرة وبين أتباعها والقائلين بها في كل واحد من هذه الأصناف. وقد التفت الشهيد السيد الصدر إلى هذه النقطة في ظهور التشيّع والشيعة، وقال في ذلك: إن مضمون ومفهوم التشيّع منبثق عن الإسلام[١]، وإن كان الأشخاص الذين اكتسبوا هذا العنوان قد ظهروا لاحقًا[٢].

إن المفهوم الذي يتحلّق حوله الشيعي العقائدي هو خلافة الإمام عليعليه السلام بلا فصل لرسول اللهﷺ في جميع شؤون الرسالة (باستثناء الوحي التشريعي). إن هذا المفهوم يستند إلى كلمات النبي الأكرمﷺ التي صدرت عنه في مختلف المناسبات بشأن الوصية والولاية للإمام عليعليه السلام، من قبيل: حديث يوم الإنذار، وحديث الثقلين، وحديث الغدير، وحديث «سلّموا عليه بإمرة المؤمنين»[٣].

وعليه فإن تاريخ ظهور التشيّع الاعتقادي يعود إلى عصر النبي الأكرم[٤]. يذهب السيد الشهيد الصدر إلى الاعتقاد بأن مفهوم «التشيّع» لا يمكن أن يكون قد حدث فجأة؛ وذلك لأن هذا الأمر لا يتطابق مع الواقع، ولا هو معقول ومنطقي، كما لا

[١]- الصدر، محمد باقر، برآمدن شيعه و تشيع، ص٢٥.

[٢]- م.ن، ص٢٠.

[٣]- المفيد، محمد بن نعمان، أوائل المقالات، ص٧؛ ابن عساكر، أبو القاسم، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص٢٦٠.

[٤]- الطباطبائي، السيد محمد حسين، شيعه در اسلام، ص١٤؛ كاشف الغطاء، محمد حسين، أصل الشيعة وأصولها، ص٤٤.

تؤيّده الشواهد التاريخية[١]، بل هو يمثل نقطة تكامل الإسلام الذي تبلور ضمن إطار الدعوة الإسلامية على يد النبي الأكرمﷺ بأمر الله سبحانه وتعالى، من أجل الحفاظ على مستقبل الإسلام[٢].

يثبت السيد الشهيد الصدر -في ضوء الاتجاه التاريخي- أن التشيّع يأتي كنتيجة طبيعية لتبلور دعوة النبي الأكرمﷺ. ويبني استدلاله في ذلك على أربعة أركان:

١ ـ ماهية الدعوة الإسلامية، التي هي عبارة عن بناء الإنسان المسلم.

٢ ـ حقيقة المجتمع في تلك الحقبة، من قبيل: عدم توفر الاستعداد الذهني والديني والسياسي للناس، بالإضافة إلى وجود المنافقين المشاكسين.

٣ ـ سلوك وسيرة النبي الأكرمﷺ طوال حياته وقيادته.

٤ ـ عدم ارتقاء الناس إلى مستوى القيادة[٣].

وعلى هذا الأساس، فإن الموقف السلبي للنبي الأكرمﷺ، وترك القيادة وإعطاء زمام الأمور السياسية والفكرية إلى المهاجرين والأنصار -وذلك بعد رحيل النبي الأكرمﷺ مباشرة وبلا مقدمات- لا يعدّ تصرّفًا ناضجًا، بل هو أمر غير معقول وبعيد عن المنطق، لا سيّما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنه الدين الخاتم وآخر الأديان التي يراد لها الخلود والبقاء إلى آخر الزمان، وعليه فإن هذه الأمور مجتمعة لا تسمح بتركه عرضة للأهواء والاختبارات الخاطئة. بل إن الطريق الوحيد المعقول والمنطقي والمنسجم مع مقتضيات صدر الإسلام ورسالة النبي الأكرمﷺ، هو أن يختار النبي الأكرمﷺ بأمر الله الشخص المناسب، وتعريفه -من خلال تعليم أسرار القيادة- لإدارة المجتمع الإسلامي من الناحية الفكرية والسياسية والاجتماعية[٤].

---

[١]- الصدر، محمد باقر، برآمدن شيعه و تشيع، ص٧-٨.

[٢]- م.ن، ص٢٥ وص٨٧.

[٣]- م.ن، ص٢٥، وص٣٩-٤٠، وص٧٠- ٧٢.

[٤]- م.ن، ص٢٥.

وقال العلامة الطباطبائي بدوره: إن إهمال الخلافة وغياب القوانين من أجل إقامة الحكومة، مخالف للفطرة، ومخالف كذلك لسيرة ومنهج النبي الأكرمﷺ، كما هو مخالف لطبيعته. وعليه كيف يمكن له أن لا يكون مهتمًّا بالأحداث التي ستقع بعد رحيله؟![١]

إن التقريرات التاريخية الموثّقة تدلّ على أن أحداث السقيفة تؤيّد أصالة مفهوم «التشيّع»؛ إذ عمد بعض الأشخاص في السقيفة -على أساس هذا المبنى- إلى مخالفة الطريقة السائدة في انتخاب الخليفة. كما لم يقبل الإمام عليعليه السلام في الشورى بأن يعمل بشيء غير كتاب الله وسنة النبي الأكرمﷺ[٢]. كما أن عموم المهاجرين والأنصار لم يكونوا يشكّون في أن إدارة الأمور بعد النبي الأكرمﷺ ستقع على عاتق الإمام عليعليه السلام. ومن ناحية أخرى فإن بعض الصحابة على الرغم من بيعتهم للإمام علي في غدير خم، إلا أنهم نقضوا بيعتهم من خلال حضورهم في السقيفة، ثم ندموا على ذلك. يقول الزبير بن بكار: بعد بيعة أبي بكر، ندم كثير من الأنصار على هذه البيعة، وأخذوا يتلاومون فيما بينهم ويذكرون اسم عليعليه السلام[٣].

وهناك من المستشرقين من التفت إلى هذه المسألة، وقال: إن الاختلاف في السقيفة يُشير إلى أن الذهنية السابقة كانت تؤكد على خلافة أمير المؤمنين؛ الأمر الذي أدى إلى هذا الاختلاف. تقول السيدة لالاني: يتضح من الاختلاف في خصوص انتخاب أبي بكر، أنه قد سبق ذلك كلام في خصوص إمامته، ومن هنا فقد اعترض الناس على انتخاب أبي بكر وانتقدوه[٤].

وقد ذكر دونالدسون هذا الاختلاف في كتابه أيضًا، وتساءل عن سبب ترشيح بعضهم عليًاعليه السلام للخلافة[٥]؟ وقد اعتبر ذلك دليلاً على وجود الذهنية السابقة بشأن خلافة الإمام عليعليه السلام لرسول اللهﷺ.

[١]- الطباطبائي، السيد محمد حسين، شيعه در اسلام، ص١٥١-١٥٣.

[٢]- ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ج١، ص١٨٨.

[٣]- م.ن، ج٦، ص٢١.

[٤]- لالاني، آرزينا، نخستين انديشه هاي شيعي، ص٣٧.

[٥]- دونالدسون، دوايت، مذهب شيعه: تاريخ اسلام در ايران و عراق، ص٨٤.

وقد ذهبت آن لمبتون إلى القول: كان هناك من يرى أن الخلافة حق لعلي عليه السلام[١]. وهذا بدوره يمكن أن يكون شاهدًا على أن بحث ظهور الفكر الشيعي وحتى ظهور الشيعة يعود إلى ما قبل مقتل عثمان، بل وحتى قبل السقيفة.

ولا شكّ في أنّ هذه الاعتراضات تستند إلى مفاهيم قد تبلورت في الأذهان وكانوا يعتقدون بها؛ وهي مفاهيم تستند إلى تعاليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وعلى هذا الأساس يمكن القول: إن مبدأ ظهور هذا الفكر (التشيّع الاعتقادي) يعود إلى عصر حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ويستند إلى تعاليمه.

وبطبيعة الحال فإن المصادر التاريخية والتفسيرية تذكر يوم دعوة العشيرة الأقربين بالتحديد -والذي يقترن باليوم الأوّل من الإعلان العام عن رسالة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله- بوصفه اليوم الأول للإعلان عن هذه الرؤية أيضًا[٢].

ج ـ مبدأ ظهور التشيّع الاعتقادي

إن بداية التشيّع الاعتقادي، بمعنى الشيعي الذي يؤمن بهذا المفهوم ويتمسّك به موضوع آخر، يتمّ بحثه بشكل مستقل:

١ ـ ظهور التشيّع الاعتقادي (بعنوان الفرد الشيعي) في عصر النبي صلى الله عليه وآله: أورد ابن طاووس رواية عن عيسى بن المستفاد، عن الإمام الكاظم عليه السلام حدّثه فيها عن كيفية إسلام السيدة خديجة؛ وجاء في هذه الرواية أنها بعد الإيمان بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومبايعته، طلب منها النبي أن تبايع عليًا عليه السلام وتؤمن بولايته أيضًا، وأن السيدة خديجة عليها السلام بايعت عليًا عليه السلام وأشهدت الله ورسوله على ذلك[٣].

إن هذه الرواية بالإضافة إلى شواهد أخرى -من قبيل: شدّة تعلّق السيدة خديجة عليها السلام بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ودعمها السخي له، وبذلها جميع ثروتها في سبيل نشر الإسلام[٤]،

[١]- لمبتون، آن كي اس، دولت وحكومت در اسلام، ص٣٥٦.

[٢]- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، ج٢، ص٦٣.

[٣]- السيد بن طاووس، رضي الدين، الطرائف، ج١، ص١١٨.

[٤]- الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار، ص٥٢؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٤.

ومنزلتها عند رسول الله ﷺ[١]، وأنها من أول المسلمين إسلامًا وإيمانًا برسول الله ﷺ[٢]- تعد من المؤيدات القوية على هذا القول، وهو أن السيدة خديجة كانت أول الشيعة إيمانًا برسول الله في بداية سنوات الدعوة كانت عليها السلام.

٢ ـ ظهور التشيّع الاعتقادي (بعنوان جماعة الشيعة) في عصر النبي ﷺ

هناك من يستند -لإثبات ظهور التشيّع الاعتقادي في عصر النبي الأكرم ﷺ- إلى الروايات النبوية المشتملة على لفظ «الشيعة». ولكن يجب القول: إن هذه الروايات في حدّ ذاتها وبالضرورة لا تفيد بيان تاريخ ظهور الشيعة. فقد تكون هذه الروايات واردة على سبيل القضايا الحقيقية، وأن مراد النبي هو أن الإمام علي عليه السلام سوف يكون له شيعة في المستقبل، وإنهم سوف يدخلون الجنة. بل ويمكن تفسير هذه الروايات على نحو القضية الشرطية أيضًا، والقول بأنها تعني: إذا كان الشخص من شيعة علي عليه السلام، فإنه سوف يدخل الجنة.

وفي إثبات تاريخ ظهور «جماعة الشيعة» يمكن للشواهد التاريخية والمسالك وروايات أصحاب النبي الأكرم ﷺ أن تكون عاملاً مساعدًا ومؤثرًا ومناسبًا في هذا الشأن. فإن الاعترافات والتسليمات والبيعات وأنواع الدعم والنصرة من قبل الأشخاص المعاصرين للنبي الأكرم ﷺ فيما يتعلق بخلافة الإمام علي عليه السلام التي تمّ الإعلان عنها من قبل رسول الله ﷺ، يمكن لها أن تعمل على هدايتنا وتوجيهنا نحو مبدأ ظهور الشيعة في عصر النبي الأكرم ﷺ بشكل أكثر اطمئنانًا. وفيما يلي نذكر نماذج من هذا القبيل على النحو الآتي:

قال خزيمة بن ثابت الأنصاري [ذو الشهادتين] بعد مبايعة الإمام علي عليه السلام: «إنّا قد تشاورنا واخترنا لديننا ودنيانا رجلاً اختاره لنا رسول الله؛ فبايعناه»[٣].

[١]- ابن الأثير، مبارك بن محمد، النهاية، ج١، ص٢٦.

[٢]- البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، ج١، ص٤٧١.

[٣]- الإسكافي، أبو جعفر، المعيار والموازنة في فضائل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ص٥١.

وكان أبو ذر الغفاري يقول في خطابه للناس: «أما لو قدّمتم من قدّم الله، وأخّرتم من أخّر الله، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم»[١]. وقال للإمام عند مسيره إلى منفاه في الربذة: «إني إذا رأيتك ورأيت ولدك ذكرت قول رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فلم أصبر حتى أبكي»[٢].

لقد روى المقداد عن رسول اللهﷺ، أنه قال: «معرفة آل محمد براءة من النار، وحبّ آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب»[٣].

وروى عمار بن ياسر عن رسول اللهﷺ، أنه قال: «أوصي من آمن بالله، وصدّقني بولاية علي بن أبي طالب، من تولاه فقد تولّاني، ومن تولّاني فقد تولى الله، ومن أحبّه فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله»[٤].

وكان سلمان الفارسي يقول: «بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وآله- على النصح للمسلمين، والائتمام بعلي بن أبي طالب -عليه السلام- والموالاة له»[٥]

وبعد عودة الإمام عليعليه السلام من صفين، قال له الثابتون من الشيعة: هناك في عنقنا بيعة أخرى أيضًا، وهي حبّنا لمن يحبك، وعداوتنا لمن يعاديك[٦].

إن سابقة هؤلاء الأشخاص في الإسلام[٧]، وحبهم وتسليمهم لأوامر النبيﷺ،

[١]- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٧١.

[٢]- م.ن، ج٢، ص١٧٣.

[٣]- ابن ماجة، محمد بن يزيد، السنن، ج٢، ص١٢٧.

[٤]- الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، ص٣١٢.

[٥]- الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، ص١٥٥.

[٦]- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، ج٥، ص٦٤؛ البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، ج٢، ص٣٤٨.

[٧]- لقد كان أبو ذر هو الرابع أو الخامس من بين المسلمين إسلامًا. (اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٣)، وقد أسلم عمار بن ياسر في السنة الخامسة من البعثة. وكان المقداد هو الشخص الثالث عشر من المسلمين (ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، ج٢، ص٤). وقد أسلم خزيمة في السنة الثانية أو الثالثة من الهجرة (ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٤، ص١٨١٧). وأعلن سلمان الفارسي إسلامه في السنة الأولى من الهجرة (الواقدي، محمد بن عمر، المغازي، ج١، ص٢).

واتباعهم النبي في جميع الحروب، وثناء النبي الأكرمﷺ عليهم[١]، ونزول سورة البيّنة في السنة الثالثة من الهجرة، تشكل قرائن على صحة هذه النظرية، وهي «أن جماعة الشيعة» قد تكوّنت في الحد الأقصى ما بين عامي ١٤-١٥ من الهجرة[٢].[٣].

ومن هنا فقد ذهب بعضهم إلى الاعتقاد بأن تاريخ ظهور التشيّع الاعتقادي يعود إلى عصر النبي الأكرمﷺ: «فأول فرق الشيعة، وهي فرقة علي بن أبي طالب -رضوان الله عليه- المسمّون شيعة علي في زمان النبيﷺ وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته، منهم: المقداد بن الأسود الكندي، وسلمان الفارسي، وأبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، وعمار بن ياسر المذحجي، المؤثرون طاعته، المؤتمنون به، وغيرهم ممّن وافق مودته مودّة علي بن أبي طالبعليه السلام»[٤].

وقال أبو حاتم الرازي في هذا الشأن: إن لفظ «الشيعة» في زمن النبي الأكرمﷺ يُطلق على أربعة أشخاص، وهم: سلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر[٥]. وهناك من أهل السنة من يرتضي هذا القول أيضًا.

وقال كرد علي: «عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول اللهﷺ... عرف هؤلاء باسم شيعة علي»[٦]. وكان بعض الصحابة، من أمثال: سلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وخزيمة بن ثابت، وأبو أيوب الأنصاري، وخالد بن سعيد، وقيس بن عبادة، يعرفون بموالاتهم للإمام عليعليه السلام[٧].

[١]- ومن ذلك قول النبي الأكرمﷺ لأبي ذر: "يا أبا ذر، إنك منا أهل البيت" (الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، ص١٥٥). وقوله في عمار بن ياسر: "إنك من أهل الجنة" (الأمين، محسن، أعيان الشيعة، ج٢، ص٣٧٣). وقوله في سلمان الفارسي: "سلمان منا أهل البيت" (المفيد، محمد بن نعمان، الاختصاص، ص٣٤١).

[٢]- ورد ذكر الروايات المأثورة عن النبي الأكرمﷺ في فضيلة وبشارة الشيعة، ضمن الآية السابعة من هذه السورة.

[٣]- ابن عاشور، محمد بن طاهر، التحرير والتنوير، ج٣٠، ص٤٦٨.

[٤]- الأشعري القمي، سعد بن عبد الله، المقالات والفرق، ص١٥.

[٥]- الأمين، محسن، أعيان الشيعة، ج٢، ص٣٧٣.

[٦]- كرد علي، محمد، خطط الشام، ج٦، ص٢٤٥.

[٧]- م.ن، ج٥، ص٢٥١-٢٥٦.

كما وقد ذهب العلامة الطباطبائي إلى القول بأن بداية ظهور الشيعة الذين يعرفون بـ«شيعة علي» يعود إلى زمن النبي الأكرمﷺ. وقد ذكر أن ظهور هذه الجماعة بين أصحاب النبي الأكرمﷺ كان أمرًا يقتضيه ظهور وتطوّر الدعوة الإسلامية على مدى ثلاثة وعشرين سنة. يرى العلامة أن محبة واتباع عشاق الحقيقة للإمام عليعليه السلام كان أمرًا طبيعيًّا وبديهيًّا. كانوا يرون أن الخلافة والمرجعية بعد النبي هي حق مطلق للإمام علي، وكانت ظواهر الأوضاع تؤيّد رؤيتهم أيضًا[١].

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار عصر النبي الأكرمﷺ مبدأ لظهور «جماعة الشيعة»؛ بمعنى أولئك الشيعة الذين كان لهم حضور على نحو متفرّق، وكانوا يتبنّون العقائد الشيعية، ولكنهم لم يكونوا يعملون بشكل محدد وفي إطار برنامج منظم وهدف ونظام خاص.

٣ ـ ظهور التشيّع الاعتقادي (بعنوان المجتمع الشيعي) بعد رحيل النبيﷺ

يذهب بعض العلماء والمفكرين إلى الاعتقاد بأن تاريخ ظهور التشيّع الاعتقادي يعود إلى ما بعد رحيل النبي الأكرمﷺ؛ وذلك حيث قامت مجموعة من بني هاشم في حادثة السقيفة بالانتصار لخلافة الإمام عليعليه السلام بلا فصل، وبذلك فصلوا طريقهم عن مسار تعيين الخليفة الأول. وبطبيعة الحال فإن هؤلاء الأشخاص لا يتجاهلون الروايات النبوية المشتملة على مفردة «الشيعة»، ولكنها لا تشكل دليلاً قطعيًا على وجود مجموعة منسجمة ومنظّمة بالعنوان الرسمي لـ«الشيعة» في عصر النبي الأكرمﷺ. ومن هنا فإنهم يقولون بأن «الشيعة» بوصفهم جماعة منظّمة ومنسجمة لها مواقفها المحدّدة، لم تظهر إلا بعد رحيل النبي الأكرمﷺ وذلك في أحداث السقيفة بالتحديد.

ويبدو أن مجرّد وجود هذه الروايات وإن كان لا يدلّ بالضرورة على وجود مجموعة موسومة بـ«الشيعة» -وإن كانت قليلة العدد- في الحقبة الزمنية لصدورها عن النبي الأكرمﷺ (حوالي أواخر السنة الثالثة من الهجرة) أو قبل ذلك، ولكنها في الوقت نفسه لا تنفي احتمال ذلك أيضًا، إلا أن ضمّ هذه الشواهد التاريخية وروايات

[١]- الطباطبائي، السيد محمد حسين، شيعه در اسلام، ص٢٩، وص٣١، وص٣٢.

بعض الشيعة الأوائل -على ما تقدّم بيانه- إلى بعضها، وكذلك أنواع المواقف التي كانوا يتخذونها في الدفاع عن الإمام علي عليه السلام وإخلاص الأتباع والولاء له في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يمكن أن يشتمل على هذا المُعطى، وهو أن الاعتقاد الشيعي لهذه الجماعة كان قد ظهر بعد قليل من صدورها أو حتى قبل زمان صدور هذه الرواية، وتشكّلت جماعة الشيعة، ولا يبعد أن يكون استعمال لفظ «الشيعة» في الروايات النبوية ناظرًا -بالإضافة إلى الأجيال القادمة- إلى الشيعة الذين كان لهم حضور في السنة الثالثة للهجرة.

بيد أن النشاط والحراك المنسجم والهادف الأول للشيعة، وموقفهم المعارض تجاه أصحاب السقيفة، إنما كان في خضم أحداث اختيار خليفة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. فقد قام ما يقرب من اثني عشر صحابيًا بإلقاء كلمات تحدّثوا فيها عن تجاهل حق أهل البيت عليهم السلام، وعدم صلاحية أبي بكر للخلافة، واعتبروا أنّ اختياره يمثّل نوعًا من الخداع والاستغفال والخطأ الذي أخذوا فيه على حين غرّة. وقد عمد هؤلاء إلى التحصّن في دار السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام تعبيراً منهم عن الاعتراض والامتناع عن بيعة أبي بكر، وإن اضطروا بعد ذلك بفترة إلى إعطاء البيعة مكرهين تحت الضغط والترهيب[١].

وعليه يمكن القول: إن ظهور الشيعة ضمن جماعة متمايزة ذات هدف وإطار محدّد، إنما كان حيث اتخذوا موقفًا في مواجهة التيار الحاكم، وذلك في أحداث السقيفة بعد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وفي الحدّ الأدنى يمكن الإقرار بوجود دليل في هذه البرهة الزمنية، وعليه لا ينبغي إرجاء ظهور المجتمع الشيعي إلى الأزمنة اللاحقة.

د ـ مبدأ ظهور التشيّع السياسي

بالنظر إلى تعريف «التشيّع السياسي»، يمكن إرجاع تاريخ ظهور هذا النوع من التشيّع إلى عصر خلافة عثمان أو بعد مقتله؛ حيث تحلّق عدد من المعترضين على سياسته وطريقة حكمه حول الإمام علي عليه السلام. وفي تلك المرحلة انقسم الناس إلى

[١]- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٢٤، وص١٧١؛ جعفريان، رسول، تاريخ خلفا، ص٢٦؛ العسكري، السيد مرتضى، السقيفة، ص٧٦.

طائفتين، وعُرفت إحدى هاتين الطائفتين بـ«العثمانية»، والأخرى بـ«العلوية». وقد عمدت هذه الطائفة من الشيعة إلى نصرة الإمام علي والقتال معه في حروبة[١].

يمكن تتبّع منشأ التشيّع السياسي أو الفكر الذي تبلور التشيّع السياسي على أساسه ضمن أحداث ما بعد ارتحال النبي الأكرمﷺ. ويمكن اعتبار فقدان النصّ الدال على تعيين الخليفة من قبل النبي الأكرمﷺ -الذي يمثّل الاعتقاد الشائع عند أهل السنة[٢]- من أهم عناصر هذه الرؤية. والعنصر الآخر في هذا الرأي هو عدم القول بالحق الإلهي للإمام. ومن لوازم هذا العنصر القول بفرعية الإمامة وتقليلها إلى حدود القيادة والإدارة العامّة للمجتمع[٣]؛ كما أن الأنصار مالوا إلى تعيين خليفة من بينهم خوفًا من تحالف قريش بعد فتح مكة والانتقام منهم[٤]، وكانوا بصدد إدارة مدينتهم من الناحية السياسية بأنفسهم[٥].

إن تبلور السقيفة والأسلوب المتّبع في اختيار الخلفاء شاهد على سيادة وحاكمية هذه الأفكار.

وقد استمرّ مسار تعيين الخلفاء على هذه الطريقة، إلى أن ضاق الناس ذرعًا وارتفعت أصوات الاعتراض وأدّت في نهاية المطاف إلى مقتل عثمان. وفي خضمّ هذه الأحداث مال عدد من الناس إلى الإمام عليعليه السلام وقبلوه بوصفه إمامًا لهم. إن هذه الجماعة التي كانت ترى اتباع الإمام واجبًا عليها عرفت بأنها من «شيعة علي»[٦].

وعلى هذا الأساس، لو تمّ التعرّف على عدد من المسلمين في هذه المرحلة بوصفهم من «شيعة علي» أو من «العلوية»، فلا يجدر القول أبدًا إنهم من الشيعة الذين يعتقدون بخلافة الإمام عليعليه السلام لرسول اللهﷺ مباشرة ومن دون فصل. إن

[١]- النشار، سامي، نشأة الفكر الفلسفي، ج٢، ص٧٨؛ فلهاوزن، يوليوس، الخوارج والشيعة، ص١٤٦.

[٢]- انظر على سبيل المثال: الغزالي، محمد، قواعد العقائد، ص٢٣٠.

[٣]- الإيجي، عضد الدين، شرح المواقف، ج٨، ص٣٤٤-٣٤٥.

[٤]- المظفر، محمد رضا، السقيفة، ص٩٥-٩٧.

[٥]- مادلونغ، ويلفرد، جانشيني محمد، ص٥١.

[٦]- جعفريان، رسول، تاريخ تشيّع در ايران، ج١، ص٢٠-٢١. (مصدر فارسي).

أكثر هذه الجماعة هم من الذين لا يؤمنون بأن الإمام علي عليه السلام هو الخليفة بعد رسول الله مباشرة، وإنما يعدّونه جديرًا بخلافة المجتمع الإسلامي بعد أبي بكر وعمر. وبعبارة أخرى: إن هذه الجماعة يجب عدّها من الناحية الكلامية ضمن أهل السنة، ولا يمكن أن يكونوا من «الشيعة» بالمعنى الخاص للكلمة.

نقد رأي هالم

يمكن الفصل بين ثلاثة موضوعات في كلام هاينس هالم، وهي: تاريخ ظهور مصطلح الشيعة، وتاريخ ظهور العنصر الأول وحاضنة انتشار التشيّع، وتاريخ تبلور الشيعة وتكوينهم. ولكننا لا نشاهد تفكيكًا بين أقسام الشيعة، ولا نرى تمايزًا بين «الشيعة» و«التشيّع»، وقد تقدّم أن الشيعة من وجهة نظر هالم عبارة عن ظاهرة سياسية بالكامل، وأن هناك قولين حول مبدأ ظهور الشيعة، وهما:

١ ـ بعد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مباشرة، وذلك استنادًا إلى حديث الغدير ودلالته على خلافة الإمام علي عليه السلام بلا فصل.

٢ ـ بعد مقتل عثمان بن عفان، وذلك بسبب الاعتراض على الوضع القائم، والميل نحو الإمام علي عليه السلام.

ومن هنا فإنه يرى أنّه المؤمنين بخلافة الإمام علي عليه السلام بلا فصل، يمثلون نمطًا آخر من التشيّع السياسي، غاية ما هنالك أن اختلافهم الوحيد يكمن في تاريخ وصول الإمام علي عليه السلام إلى الخلافة. ومن هنا فإنه لا يراهم فرقة، وإنما هم ـ من وجهة نظره ـ مجرّد انشعاب، وإن الاختلاف الوحيد بين هذا الانشعاب وأصله يكمن في تاريخ القول بخلافة الإمام علي عليه السلام ومبدأ الظهور.

يميل هاينس هالم فيما يتعلق بتاريخ تبلور الشيعة بوصفهم حزبًا إلى القول الثاني، وكذلك يرى أن تاريخ ظهور مصطلح الشيعة يعود إلى ما بعد مقتل عثمان بن عفان. إلا أنه يرى اتخاذ الموقف المعارض في أحداث السقيفة نقطة بداية ومهد انتشار التشيّع. ويمكن العثور على هذا الفهم في كلام المستشرقين الآخرين أيضًا. من ذلك أن يوزيف فان إس يقدّم صورة تاريخية عن الشيعة، ويعتبرهم مجموعة تبلورت في مسار التاريخ.

وذلك على أنهم في النزاع بين عثمان والإمام علي عليه السلام التحقوا بصفّ الإمام علي عليه السلام وتحلقوا حوله وأعطوه الحق[١]. وهو يرى أن الفكرة التي قام عليها هؤلاء الشيعة عبارة عن فكرة القيادة النورانية والمقدّسة، وإن وفاء هؤلاء لم يكن من أجل تقديس شخص، وإنما كانوا يبحثون عن قيادة كفوءة تليق في العصر الحاضر. وقد تبلورت رؤية أحقيّة الإمام علي عليه السلام عندهم بالتدريج، ولم يكن ذلك ضروريًا، ولم يُكتب له الدوام. وعلى هذا الأساس فإن الإمام علي بالنسبة لهم مفهوم يرتبط بالتاريخ[٢].

كما يذهب لمبتون بدوره إلى الاعتقاد بأن الشيعة جماعة قد انفصلت عن الجسد الأصلي للإسلام بسبب الاختلافات السياسية. ورأى أن بداية التشيّع عبارة عن حركة ونهضة سياسية. وقال في هذا الشأن: «إن التشيّع وإن تحوّل لاحقًا إلى ثورة دينية، إلا أنه كان في بداية الأمر مجرّد حركة سياسية تأسست من أجل الانتصار لتطبيق القانون بشكل صحيح، وكانت ترى أن قيادة المجتمع إنما هي من حق الإمام علي عليه السلام وبنيه»[٣].

إن هذه الرؤية التي تعتبر التشيّع فكرة طارئه ومتمخّضة عن الأحداث التاريخية، إذا لم نقل إنها ناشئة عن خطأ وعدم تدقيق في الكلام، وعدم رعاية الأصول العلمية في تحليل الوقائع التاريخية، فلا أقل يمكن اعتبارهم غير مطلعين على المصادر الشيعية المعتبرة، ويرجع ذلك إلى اقتصارهم على الرجوع إلى مصادر أهل السنة.

إن تقليل شأن خلافة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى مجرّد إدارة المجتمع، يعود بجذوره إلى مبنى أهل السنة في الخلافة حيث يذهبون إلى أن منصب خلافة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ليس شأنًا إلهيًّا وعلميًّا وولائيًّا. يرى هاينس هالم أن حديث الغدير هو مستند الشيعة الإمامية الاثنى عشرية. إلا أنه يرفض دلالته من دون سبب. ناهيك عن أن مستند الشيعة في إثبات إمامة وخلافة الإمام علي عليه السلام لا يقتصر على حديث الغدير فقط.

والسؤال الذي يجب طرحه على هاينس هالم هو: أيّ صنف من أصناف الشيعة ظهر بعد مقتل عثمان بن عفان؟ وأيّ أصناف الشيعة هم الذين كانوا يرون أن خلافة

[١]- فان اس، يوزيف، كلام و جامعه، ص٣٣٤.

[٢]- م.ن، ص٣٣٤-٣٣٥.

[٣]- لمبتون، أن كي إس، دولت و حكومت در اسلام، ص٣٥٧-٣٥٨.

الإمام علي عليه السلام هي وحدها الخلافة الشرعية دون سواها؟ إن هذا السؤال هو الذي يدفعنا إلى التفكيك والفصل بين أنواع «الشيعة»؛ وهو ما لم يتعرّض له هاينس هالم في مقالته. وإن الذي تعرّض له هالم في تعريف الشيعة إنما هو ناظر إلى قسم واحد من أقسام الشيعة فقط، وهو القسم الذي أطلقنا عليه عنوان «التشيّع السياسي». وهناك في الحدّ الأدنى قسم آخر يمتاز من هذا القسم؛ وذلك بسبب خصائصة الاعتقادية المختلفة تمامًا. إن هؤلاء استنادًا إلى الأدلة العقلية والنقلية والتاريخية الموجودة في المصادر المعتبرة لديهم ولدى أهل السنة أنفسهم، يعتقدون بأن الإمام علي عليه السلام هو خليفة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في جميع الأبعاد بالمعنى الواقعي والحقيقي للكلمة.

وربما كانت عبارة ويلفرد مادلونغ هي الأبلغ في هذا الشأن؛ إذ يقول: على الرغم من أن الإمام علي عليه السلام كان محقًا فيما يتعلق بمرجعيته الدينية بمقدار ما كان محقًا في القيادة السياسية أيضًا؛ بيد أن إمامته لم تكن مرهونة بالحكومة الفعلية أو أيّ مسعى آخر للحصول عليها[١].

ذكرنا أنه طبقًا للتعريف والشواهد المتوفرة، فإن مبدأ ظهور هذه الجماعة (الجماعة الشيعية) -في ضوء تحليل الروايات والاعترافات الواصلة عنهم- يعود إلى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وأما مبدأ ظهور «المجتمع الشيعي» فيعود إلى أحداث السقيفة وما بعد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. إن سابقة التعاليم النبوية التي كانت راسخة في أذهان هذه الجماعة كُتب لها الظهور في أحداث السقيفة؛ حيث اتخذوا موقفهم المعارض والمعروف على أساسها.

ومن الجدير ذكره أن الشيعة الذين يقول عنهم هاينس هالم إنهم لم يفقدوا خصوصيتهم السياسية، هم غير الشيعة الذين عُرفوا بعد مقتل عثمان بوصفهم «شيعة علي عليه السلام» (التشيّع السياسي). فإن الكثير من هؤلاء الشيعة إنما هم في الواقع من أهل السنة، وقد تماهوا مع مسار الخلافة. وأما الشيعة الذين لم يفقدوا هذه الخصوصية فهم الشيعة العقائديون الذين لم يقم هاينس هالم بتعريفهم للأسف الشديد. وقد كان لهؤلاء حضور حتى قبل مقتل عثمان بن عفان، وكانوا يُعرفون بهذه التسمية.

[1]- See: Madelung, Wilferd, Encyclopaedia of Islam (E12), Vol. 3, Leiden, Brill, 1986, P. 1166.

الخاتمة

لقد توهّم هاينس هالم أن الشيعة ينحصرون بنوع واحد فقط -وذلك بسبب عدم تمييزه بين جماعة «الشيعة» وبين مفهوم «التشيّع»- وقال بأن الشيعة يمثلون انشعابًا أو فرقة انفصلت عن أصلها بسبب النزاع السياسي حول مسألة القيادة والخلافة، وانتشرت على طول الزمان. إن تركيز الاهتمام على البُعد السياسي من الشيعة، جعل هاينس هالم يغفل عن الاهتمام بالأبعاد المعنوية والمحتوى الاعتقادي للشيعة، في حين أن التشيّع (الفكري والاعتقادي) -طبقًا للتعاليم الشيعية- إنما هو وليد الإسلام، وإن كان الاختلاف الزمني لظهور «الفكر» و«الاتباع» محتملاً أيضًا.

نحن نذهب إلى الاعتقاد بأن لكلمة «الشيعة» استعمالات متنوّعة، وإن لها بطبيعة الحال أزمنة ظهور متفاوتة، وإن من بين أنواعها التشيّع الاعتقادي الذي يمكن أن تكون له مصاديق تحت عنوان «الفرد»، أو «الجمع»، أو «المجتمع»، حيث يحتمل أن تكون هذه المصاديق قد نشأت في أزمنة مختلفة. إن الشواهد والتقارير التاريخية ترشدنا إلى هذا الاحتمال القوي، وهو أن «التشيّع على المستوى الفردي» قد ظهر في السنوات الأولى من البعثة، وأن «جماعة الشيعة» -ولو على نحو محدود- قد ظهرت في السنوات الأخيرة من حياة النبي الأكرمﷺ، وأما «المجتمع الشيعي»، فلم يظهر إلا بعد رحيل النبي الأكرم، وذلك في خضم أحداث السقيفة.

وأما اليوم فإن المراد من التشيّع المصطلح في الأدبيات الشائعة بين المسلمين هو التشيّع الاعتقادي الذي تعود جذوره الفكرية إلى عصر النبي الأكرمﷺ، وأما الآراء والأقوال الأخرى في ظهور المجتمع الشيعي، فهي مجرّد تعبير عن التحوّلات التاريخية للتشيّع، وإنها تبعًا لذلك تعبّر عن التشيّع السياسي.

لائحة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم، ١٣٣٧هـ.ش.

٣. ابن الأثير، مبارك بن محمد، النهاية، دار ابن الجوزي، المدينة المنوّرة، ١٤٢١هـ.

٤. ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محمد رضا تجدد، انتشارات أساطير، طهران، ١٣٨١هـ.ش.

٥. ابن حزم، أحمد، الفصل، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ.

٦. ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، المكتبة الحيدرية، النجف.

٧. ابن عاشور، محمد بن طاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٨. ابن عبد البر، الاستيعاب، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ.

٩. ابن عساكر، أبو القاسم، تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.

١٠. ابن ماجة، محمد بن يزيد، السنن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٥هـ.ش.

١١. ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ.

١٢. الإسكافي، أبو جعفر، المعيار والموازنة في فضائل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، مؤسسة المحمودي، بيروت، ١٤٠٢هـ.

١٣. الأشعري القمي، سعد بن عبد الله، المقالات والفرق، مركز انتشارات علمي و فرهنگي، ط ٢، طهران، ١٣٦٠هـ.ش.

١٤. الآلوسي، محمود، روح المعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.

١٥. الأمين، محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، ط ٥، ١٤١٨هـ.

١٦. الإيجي، عضد الدين، شرح المواقف، الشريف الرضي، قم، ١٣٢٥هـ.ش.

١٧. البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ.

١٨. الجرجاني، شريف علي، التعريفات، انتشارات ناصر خسرو، طهران، ١٣٠٦هـ.ش.

١٩. جعفريان، رسول، تاريخ تشيّع در ايران، انتشارات انصاريان، قم، ١٣٧٥هـ.ش.

٢٠. جعفريان، رسول، تاريخ خلفا، انتشارات دليل ما، قم، ١٣٨٢هـ.ش.

٢١. الحسكاني، عبيد الله بن أحمد، شواهد التنزيل، وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامي، طهران، ١٤١١هـ.

٢٢. الحسيني، إدريس، راه دشوار مذهب به مذهب، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محمود مالكي، دار القرآن الكريم، قم، ١٣٧٤هـ.

٢٣. خاكرند، شكر الله، تشيع نگاري و خاورشناسان، انتشارات خاكريز، قم، ١٣٨٨هـ.ش.

٢٤. الدسوقي، محمد، سير تاريخي و ارزيابي انديشه شرق شناسان، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محمد رضا افتخار زاده، انتشارات هزاران، طهران، ١٣٧٦هـ.ش.

٢٥. دهخدا، علي أكبر، لغت نامه، انتشارات دانشگاه طهران، ط٢، طهران، ١٣٧٧هـ.ش.

٢٦. دونالدسون، دوايت، مذهب شيعه: تاريخ اسلام در ايران و عراق، ترجمه إلى اللغة الفارسية: عباس أحمدوند، پژوهشكده تاريخ و سيره أهل البيت عليهم السلام، قم، ١٣٩٥هـ.ش.

٢٧. الراغب الإصفهاني، حسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٨. الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، منشورات الرضي، قم، ١٣٧٤هـ.

٢٩. الزمخشري، جار الله، ربيع الأبرار، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٢هـ.

٣٠. السعدي، إسحاق بن عبد الله، دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٢٦هـ.

٣١. سعيد، إدوارد، شرق شناسي (الاستشراق)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: عبد الرحيم گواهي، دفتر انتشارات فرهنگ اسلامي، طهران، ١٣٨٣هـ.ش.

٣٢. السيد بن طاووس، رضي الدين، الطرائف، انتشارات تاسوعاء، طهران، ١٤٢٠هـ.ش.

٣٣. السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٣٤. شاردن، جان، سفرنامه، ترجمه إلى اللغة الفارسية: إقبال يغمائي، انتشارات توس، طهران، ١٣٧٢هـ.ش.

٣٥. شاكر، أبو القاسم، «شبهات پيرامون تاريخ پيدايش تشيّع»، مجلة: پيام، العدد ١٠٤، ١٣٨٩هـ.ش.

٣٦. الشهيد الصدر، السيد محمد باقر، برآمدن شيعه و تشيع، ترجمه إلى اللغة الفارسية: مهدي زنديه، دائرة المعارف، قم، ١٣٨١هـ.ش.

٣٧. الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار، جامعة المدرسين، قم، ١٤٠٣هـ.

٣٨. الطباطبائي، السيد محمد حسين، «كيفيت پيدايش شيعه و نشو و نماي آن»، مجلة معارف اسلامي، العدد ١، ١٣٤٥هـ.ش.

٣٩. الطباطبائي، السيد محمد حسين، شيعه در اسلام، بوستان كتاب، ط١٠، قم، ١٣٩١هـ.ش.

٤٠. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢م.

٤١. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، المكتبة الرضوية، طهران.

٤٢. الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، دار الثقافة، قم، ١٤١٤هـ.

٤٣. العاملي (الشهيد الثاني)، زين الدين بن علي، الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، مكتبة الداوري، قم، ١٤١٠هـ.ش.

٤٤. العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في معرفة الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

٤٥. العسكري، السيد مرتضى، السقيفة، جامعة أصول الدين، قم، ١٣٨٧هـ.ش.

٤٦. العسكري، السيد مرتضى، عبد الله بن سبأ، ترجمه إلى اللغة الفارسية: أحمد الفهري، انتشارات العلامة العسكري، قم، ١٣٥٤هـ.ش.

٤٧. الغزالي، محمد، قواعد العقائد، عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٥هـ.

٤٨. فان اس، يوزيف، كلام و جامعه، ترجمه إلى اللغة الفارسية: فرزين بانكي وأحمد علي حيدري، دانشگاه اديان و مذاهب، قم، ١٣٩٧هـ.ش.

٤٩. فتاحي زاده، فتحية وپروين حيدري، «بررسي منشأ پيدايش شيعه و تفاوت آن با مذاهب ديگر»، مجلة: شيعه شناسي، العدد ٢٠، ١٣٨٦هـ.ش.

٥٠. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، دار الهجرة، قم، ١٤٠٥هـ.

٥١. فلهاوزن، يوليوس، الخوارج والشيعة، دار الجليل، ط٥، مصر، ١٩٩٨م.

٥٢. قراملكي، أحد، «چيستي و حقيقت امامت»، مجلة: امامت پژوهي، جامعة العلوم الإسلامية الرضوية، مشهد، ١٣٨١هـ.ش.

٥٣. كاشف الغطاء، محمد حسين، أصل الشيعة وأصولها، مؤسسة الأعلمي، ط٤، بيروت، ١٤١٣هـ.

٥٤. كرد علي، محمد، خطط الشام، مكتبة النوري، ط٣، دمشق، ١٤٠٣هـ.

٥٥. لالاني، آرزينا، نخستين انديشه هاي شيعي، ترجمه إلى اللغة الفارسية: فريدون

بدره اي، انتشارات فرزان روز، طهران، ١٣٨١هـ.ش.

٥٦. لمبتون، آن كي اس، دولت و حكومت در اسلام، ترجمه إلى اللغة الفارسية وحققه: سيد عباس صالحي و مهدي فقيهي، انتشارات عروج، طهران، ١٣٧٤هـ.ش.

٥٧. لمبتون، آن كي اس، دولت و حكومت در اسلام، ترجمه إلى اللغة الفارسية وحققه: سيد عباس صالحي و مهدي فقيهي، انتشارات عروج، طهران، ١٣٧٤هـ.ش.

٥٨. المظفر، محمد رضا، السقيفة، انتشارات أنصاريان، قم، ١٤١٥هـ.

٥٩. المظفر، محمد رضا، المنطق، مطبعة النعمان، ط ٢، النجف، ١٣٨٨هـ.

٦٠. معروف الحسني، هاشم، الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ، دار التعارف، بيروت، ١٤١٠هـ.

٦١. مغنية، محمد جواد، الشيعة في الميزان، دار التعارف، ط ٤، بيروت، ١٣٩٩هـ.

٦٢. المفيد، محمد بن نعمان، الاختصاص، مؤتمر الشيخ المفيد، قم، ١٤١٣هـ (أ).

٦٣. المفيد، محمد بن نعمان، أوائل المقالات، مؤتمر الشيخ المفيد، قم، ١٤١٣هـ (ب).

٦٤. النشار، سامي، نشأة الفكر الفلسفي، دار المعارف، ط ٩، مصر، ١٩٧٧م.

٦٥. هالم، هاينس، تشيّع، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محمد تقي أكبري، نشر أديان، قم، ١٣٨٤هـ.ش.

٦٦. الواقدي، محمد بن عمر، المغازي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٩هـ.

٦٧. الوائلي، الشيخ أحمد، هوية التشيّع، دار الكتاب الإسلامي، ط٣، قم، ١٤٢٦هـ.

٦٨. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت.

69. Madelung, Wilferd, Encyclopaedia of Islam (E12), Vol. 3, Leiden, Brill, 1986